

المحاضرة (٢٥)

الاتجاه الوصفي عند شعراء المهجر

ونقصد بهذا وصف الطبيعة، وموقف شاعر المهجر منها وطريقة التعبير عنها، وذلك لكي نفرق بينه وبين وصف النفس، ووصف الكون، مما يندرج تحت الاتجاه التأملي الذي فرغنا من الكلام عليه.

وأول ما يطالعنا من المظاهر الطبيعية التي وصفها شعراء المهجر (الغاب).

وعلى الرغم مما يحتشد في وصف الغاب من مظاهر طبيعية مختلفة، إلا إن وصفه والحديث عنه ينفرد بخصوصية معينة، وهي - كما أسلفنا- تتلفع بغلالة رمزية معينة أيضاً، لأن الغاب وما فيه لا يوصف أو يستوحي، كما هو الشأن في المظاهر الطبيعية الأخرى، وإنما الهدف منه كما تقول نادرة سراج (التمرد والثورة على الحياة المعقدة المشوشة والدعوة الحارة للرجوع إلى الطبيعة الساذجة البسيطة).

ولعل حياتهم المعقدة المشوشة التي جابهتهم في بيئتهم الجديدة التي لم تلق - وبسرعة- حالة من القبول أو الرضى، هي التي دفعتهم - كرد فعل- إلى نشدان حياة الغاب، ناهيك عن أنهم أرادوا بهذا الغاب لبنان وسوريا التي تركت فراغاً في نفوسهم، بعد أن غادروها مضطرين في بعض الأحيان.

لذلك قررنا قبل قليل، أن الغاب كان أثراً من آثار الحنين، وهذا هو الذي دعانا إلى ا، نجعله من آثاره.

ويستهدف الحديث عن الاتجاه الوصفي هنا، موقف الشاعر المهني من كل مظاهر الطبيعة، وفعلها في نفسه، وشاعر المهجر كما هو معروف، يمتلك رهافة في الحس، ورقة في الشعور وصدقاً في العواطف أمام الطبيعة التي نشأ وترعرع وعاش في ظلها وفي لبنان وسوريان لذلك صارت الطبيعة جزء من نفسه وهي التي رقت من طبعه، وعمقت موقفه من الحياة.

وعلى الرغم من أن الشاعر الحق يستوحي- عادة- الطبيعة في شعره، إلا أن شعراء المهجر (في وصفهم للطبيعة تتجلى عندهم روح التفكير الفلسفي والنظرة التأملية إلى كل ما حولهم).

وأول ما لفت نظر شعراء المهجر إلى الطبيعة، الليل والبحر، فجيران مثلاً يعجبه الليل ويتجاوب معه ويستشف مكنونات أسراره، ويشعر نحوه بالألفة والصدقة، وأبو ماضي يحن إلى الليل ويناغي حبيبته في ظلامه.

ونسيب عريضة يلذ له التأمل إذا جن الليل، ويستوحي في ظلمته عظمة الطبيعة، والليل لديه يوحى بالعمق وهو وسيلة للتأمل والبحث عن طريق الخلاص.

وهذا الموقف من الليل وتصوره، يختلف عن موقف الشاعر القديم من الليل إذ كان يخافه ويهرب منه ، وهو كذلك لا يستوحيه بالقدر الذي نجده لدى شاعر المهجر على الخصوص. ويجيء البحر في المرتبة الثانية في وصفهم للطبيعة. وموقفهم الاستيحائي من البحر كموقفهم من الليل، فقد استوحوا من اضطرابه اضطراب نفوسهم، واستوحوا من مده وجزره ما تتراوح فيه نفوسهم من حنين وتطلع إلى ما وراء الطبيعة. ويتجلى في موقف جبران أمام البحر، وروح التفكير التأملي الفلسفي حين ينسب إليه كل الأشياء في الطبيعة:

غير ان البحر يبقى هاجعاً قائلأ في نومـه: الكل لي

ويخاطب ميخائيل نعيمة ن البحر بلسان الفيلسوف المتأمل في الأشياء. المتطلع إلى أسرار الكون، ويقارن بين هيجان البحر واضطرابه، وما يموج في نفسه من اضطراب. وفي طلاسـم أبي ماضي حديث عن الحبر ومع البحر، وتساؤل عن أصله وعمره وقصده وفيها مقارنة بين خصائص من نفسية الشاعر وبعض خصائص البحر وحديثه مع البحر يحس قارئه وكأنما الشاعر فقد تفاعلت نفسه مع البحر .

أنت يا بحر اسير آه ما اعظم اسـرك
أنت مثلي أيها الجبار لا تمتلك أمـرك
أشـبهت حالـك حـالي وحكي عـذري عـذرك
فمتى أنحو من الأسر وتجوو؟

لست أدري

وقد تابع أبو ماضي صديقه في نسبته كل شيء إلى البحر، واستوحى نفسه التواقة إلى المعرفة، من البحر واستكنه المجهول منه حتى وصل حد اللادارية:

أنني يا بحر بحر شاطئاً مشطاطناكا
الغد المجهول والأمس اللذان اكتنفاكا
وكلانا صائرٌ يا بحر في هـذا وذاكـا
لا تسـلني ما غـد ما أمـس؟ أنـي

وقفه أبي ماضي هذه تذكرنا بوقفه ابراهيم ناجي أمام البحر، حيث تأمله واستوحى ما في نفسه من حيرة وقلق واضطراب.

وهكذا يجيء حديث شعراء المهجر (عن البحر ومع البحر حديثاً فيه كثير من التأمل والتطلع نحو الأفق البعيد الذي يبدو من ورائه نائياً غامضاً، كما أن فيه محاولات للتقرب من البحر والتشبه به في الوحدة والوحشة والسكون، وفي الهيجان والقلق والاضطراب، ولاعجب، فطبيعة هؤلاء الشعراء كانت توحى إليهم بكل هذه الأشياء، ونفسياتهم المنطوية الحزينة كانت تموج بمثل تلك العواطف)

ومما تجدر ملاحظته، أن هذا الاستيحاء والتأمل كان اعمق لدى شعراء الشمال منه إلى شعراء الجنوب.

وفيما عدا الليل والبحر، اللذين استقطبا عناية شعراء المهجر، فقد استعانوا أيضاً لهذا الاستيحاء بمظاهر طبيعية أخرى من مثل الانهار والأزهار والرياض والطيور وشكلت الرياض في شعرهم وحدة طبيعية متكاملة تحتشد بالألوان والأشكال، وتعبق بالروائح والعطور. فيمخائيل نعيمة (النهر المتجمد) ولجبران (البنفسجية الطموحة) وإيليا أبي ماضي (زهرة أفحوان).

وارتبطت في رياضهم، الطبيعة الحية بالطبيعة الجامدة، وشكلت في قصائدهم لوحات فنية تزهر بالألوان وتعبق بالعطور وتتدفق بأعذب الألحان.

وقد ارتبطت مظاهر الطبيعة عند شعراء المهجر، بالزمن، فكان فصل الخريف اقرب فصول السنة إلى نفوسهم الآسية ومشاعرهم الدافقة، وهي ظاهرة نجد أثرها لدى كل الشعراء الرومانتيكيين في العالم كله، إذ تسقط أوراق الأشجار في هذا الفصل، وتمر بفترة سبات بعيدة عن الحيوية والنشاط. وقد استوحى الشعراء الرومانتيكيون ذبول نفوسهم وخيبة آمالهم وفشل حبهم من هذا الفصل الذي تسببت فيه الطبيعة بل أن أحدهم قد استوحى اسم ديوانه من أوراق هذا الفصل فسماه (أوراق الخريف) وللشاعر ندره حداد مقطوعة بعنوان (الخريف).

وفي إحدى قصائده يتحدث رشيد أيوب عن (الورقة المنتعشة) التي هبت عليها رياح الخريف.

(وكثيراً ما كان شعراء المهجر يتخذون من الطبيعة ومظاهرها الكثيرة المتنوعة، مصدر إلهام بحقيقة الإيمان وجوهره، وطريقاً مضيئاً يلتمسون فيه المضي إلى رحاب الله، ويلتمسون دلائل وجوده وبراهين عظمته في كل ما ابداع من هذه الكائنات التي تحيط بهم، والتي هي أبلغ دليل وأصدق برهان على وجوده الأسمى).

وتستطيع قصيدة (ابتهالات) للشاعر ميخائيل نعيمة أن تقدم كل ما يمكن أن يراه الانسان في الطبيعة والتي هي دليل القدرة الإلهية، ويرى فيها صورة من عظمة الخالق المبدع . يبقى أن نشير إلى أن النزعة العاطفية، وحديثها عن المرأة، قد ارتبط ارتباطاً شديداً بوصف الطبيعة. وصورة المرأة في الشعر المهجري قد تجاوزت النطاق المادي المعروف،

وأصبح ذكرهم لها يرتبط بالإيحاء الذي وجدناه في وصف الطبيعة، فالمرأة لديهم توحى بنظارة الحياة وبهجتها وبآمال، وترتبط بالأمني والطموحات، وشكلت في تراثهم الشعري جانباً أساسياً وهو ما يلاحظ عند جبران وأبي ماضي والياس فرحات والشاعر القروي وشفيق المعلوف.

لقد مثلت المرأة في شعر المهجريين (محوراً من أهم المحاور التي دارت حولها فلسفتهم المثالية، فهي حجر الزاوية في البناء النفسي والفكري لهذه الفلسفة، وهي الصورة التي يعكسون من خلالها آفاق وجدانهم، وهم يرسمون صورة للحياة البشرية كما ينبغي أن تكون).

وهذا ما يمكن أن نجده في قصيدة (الغابة المفقودة) وقصيدة (المساء) لإيليا أبي ماضي وكذلك نجده في قصائد لنسيب عريضة المعلوف والياس فرحات وميخائيل نعيمة.

وعلى الرغم من أن شعراء المهجر قد اتخذوا من المرأة محوراً عن النفس والحياة، إلا ان شعرهم لم يخل من التوجه إلى المرأة بصورة مباشرة ليتحققوا بها موضوعاتهم العاطفية . (فهم يتغنون بها ويهتفون بحبها ويهيمنون معها فوق أبراج النجوم وعلى قمم الجبال، ويرون فيها من وجوه الجمال والسحر وما يتفنون في رسم صورة وتجليه أسرارها في نسيج شعري جديد)

ويخاطب ميخائيل نعيمة أوراق الخريف الداوية بلهجة الانسان، ويجعلها محوراً للتعبير عن أفكاره الفلسفية، ومنها كمون المادة وتناسخها وانتقالها في أطوار مختلفة من الحياة.

إن هذا الموقف الاستيحائي من فصل الخريف، ويؤكد تجديد شعراء المهجر في موضوعات الشعر العربي، إذ لم يكن هذا الفصل في الشعر القديم يختلف عن غيره من فصول السنة على الرغم من اختلاف طبيعته. لكن شعراء المهجر هم من أوائل الذين منحوا فصل الخريف هذا المعنى المبتكر، إذ ربطوا بين مظاهره ومظاهر الانسان الذي يشبهه، ولذلك كانت عنايتهم بهذا الفصل أكثر من اهتمامهم بفصل الربيع على عكس ما حصل في الشعر العربي القديم الذي حفل بالناية بفصل الربيع، لأنه يمنح البهجة للإنسان ويعبر عن الحيوية الدافقة في ذاته.

ولم ينس شعراء المهجر فصل الربيع، لما فيه من جمال وسحر وما يوحي من دفق وحيوية وانسراح وبهجة. وما كان لشعراء المهجر أن يتغافلوه، وبلاذهم كلها تمثل ربيعاً دائماً تكسوه الخضرة وتغطيه الثلوج وتملأه الأشجار، وتفوح العطور من أزهاره وتتلون الارض بألوانه، وتتشابك فيه الانهار وتتساقط الشلالات.

وهكذا راح شعراء المهجر يتغنون لفصل الربيع ، ويرتلون له الألحان، ويمنحونه من مشاعره الرقيقة وأحاسيسهم الدافقة ما يدل على احتفائهم بمظاهره واحتفالهم بطبيعته.

وقد تميزت قصائد الربيع هذه بأنها حفلت بالدقة والمهارة، وامتازت بالحيوية والحرارة وبالتصوير الدقيق، لأن مظاهر هذا الفصل لوحة تتشكل أبعادها من قضايا كثيرة، الألوان

والاشكال والعتور، وتتعانق فيها ظلالها الطبيعية الحية مع الطبيعة الميتة، ولعل قصيدة رشيد ايوب (هي الدنيا) تستطيع أن تؤكد هذا الاتجاه إذ يقول فيها:

قالوا ربيع قلت اين الصبا
أين الفراشات وأين الطيور
أيام أعدو خلفها حافياً
وكيفما في الحقل دارت أدور
طائرة، لكنني مثلها
من فرحي ما بين تلك الزهور

أما فصل الشتاء، فيبدو أنهم لم يميلوا إليه فشكوا من طوله، لما يثير في أنفسهم من ضيق وانقباض.

المصادر

١- شعراء الرابطة القلمية

٢- حركة التجديد الشعري في المهجر